الاسلام والديمقراطية

للاستاذ عبد المجيد نافع

بقية ما نشر في العدد الماضي

رأى عمر مرة يهودياً ممسكا برسول الله يطالبه بدين له ، فعظم ذلك عليه وأخذ بخناق اليهودى وقال: دعنى أقله يارسول الله . فقال : دعه يا عمر إن لصاحب الحق مقالا

وخطب أبو بكر فقال : القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ منه الحق ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له الحق إن شاء الله تعالى

واختلف عمر مع اعرابى فاحتكما إلى أبى بكر فقال : قف بجانب خصمك وقص يا ابن الخطاب قصتك . فقام عمر وعلى وجهه أثر الامتعاض . فقال له أبو بكر : أيسوؤك أن تقف بجانب خصمك ؟ قال : لا . ولكن ساءنى أن كنيتنى وفى الكنية تعظيم

ولما أسلم جبلة بن الأيهم ملك غسان وفد على عمر بن الخطاب بابهة الملك وحشمه فتلقاه عمر بالترحيب ، وبينما هو يطوف يوماً وطىء على إزاره اعرابى فضربه على وجهه ، فشكاه الاعرابى إلى أمير المؤمنين ، فاستدعى عمر جبلة وقال له : إما أن ترضيه وإما أن يضربك كما ضربته . فكبر ذلك على جبلة وقال : ألا تفرقون بين الملك والسوقة ؟ قال : لا . قد جمع بينكما الاسلام . فاستمهله إلى الغد ثم أخذ قومه وفر بهم ليلا ، ولحق بالامبراطور هرقل بالقسطنطينية

وعزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد من قيادة الجيش وقال له : ما عزلتك لريبة فيك ، ولكن افتتن بك الناس فخفت أن تفتتن بالناس

على أن نفس خالد كانت متشبعة بمبادىء المساواة ، فارتضى أن يهبط من القيادة إلى مصاف الجندية ، وأن يكون فى الجهاد جندياً بسيطاً

وإن شئت أن ترى آية من آيات المساواة فى الاسلام فأنعم النظر فى كتاب عمر إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء حيث يقول : آس بين الناس فى مجلسك ووجهك حتى لايطمع شريف فى حيفك ولا يخاف ضعيف من جورك

وكذلك كان يبغى عمر العدالة ومظاهر العدالة

وجمع عمر الناس بالمدينة حين انتهى إليه فتح القادسية ودمشق فقال : إنى كنت امرأ تاجراً وقد شغلتمونى بأمركم هذا فماذا ترون أن يحل من هذا المال ؟ فأكثر القوم وعلى رضى الله عنه ساكت. فقال : ياعلى ما تقول ؟ قال : مايصلحك ويصلح عيالك بالمعروف ليس لك من هذا الأمر غيره . فقال : القول ما قال على بن أبى طالب

وما كان المسلمون يأنفون من العمل الحر الشريف ، فقد كان أبو طالب يبيع العطر وربما باع البر . وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه بزازا . وكان عثمان بزازا . وكان طلحة بزازا . وكان عبد الرحمن بن عوف بزازا . وكان سعد بن أبى وقاص يبرى النبل . وكان العوام أبو الزبير خياطا . وكان الزبير جزارا ، وكان عمرو بن العاص جزارا

يفاخرنا الغربيون بعظمائهم الذين خرجوا من صفوف العمال وأولئك بناة مجد الاسلام قد خرجوا من جميع البيئات . ونبتوا فى كل الطبقات

وما سقت لك تلك الأمثال عبثا ، وإنما أردت أن أدلك على أن المساواة فى معناها الصحيح ، وفى كافة مظاهرها ومختلف صورها لم تتحقق يوما كما تحققت فى الصدر الأول من الاسلام

مساواة أمام القانون ، فقد شرع للناس كافة لا فرق بين عظيم وحقير ، وغنى وفقير ، وقوى وضعيف

مساواة أمام القضاء ، ولقد أطلعتك على جانب منها فى أروع مظاهره وأسمى معانيه

مساواة فى الوظائف العامة ، فقد رأيت كيف ينشأ الرجل منهم فى البيئة الصغيرة ثم يصل إلى أسمى مناصب الدولة

مساواة فى الضرائب ، فما كانوا يرهقون أحداً أو يظلمون فتيلا

وعلى الجملة فقد كانت مساواة فى الحقوق والواجبات

حقق الاسلام مبدأ المساواة السياسية والمساواة المدنية على أنه لم يشأ أن يمنى أتباعه بالمساواة الاقتصادية أو بعبارة أوضح بالمساواة فى الأرزاق ، ذلك بأنه دين الفطرة

وكيف السبيل إلى المساواة الاقتصادية ، وفى الناس العملاق والقزم والقوى والضعيف وجبار العقل والأبله المعتوه

إن نواميس الطبيعة تأبى المساواة الاقتصادية ، ولئن جاز أن تكون فى هذا الميدان مساواة فأولى بها أن تكون مساواة فى البؤس والشقاء

رأى الاسلام أن المساواة الطبيعية مستحيلة . فقال تعالى فى

محكم كتابه : وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات

وشاء الاسلام أن يلطف من قسوة قوانين الطبيعة فشرع الزكاة . وعندى لو أن نظام الزكاة طبق على وجهه الصحيح لوجدنا السبيل إلى حل المسألة الاجتماعية التى عجز إلى اليوم عن حلها فطاحل علماء الاجتماع فى أوربا . تلك المسألة التى كانت مثار النضال بين الطبقات ، ومبعث المذاهب المتطرفة والنظريات الهدامة

وإذن فليس من الاسراف فى القول أن يقال ان الاسلام هو الحصن الذى يرد غزوة المذاهب الهدامة التى تهز كيان المجتمع الأوربى أعنف الهزات ، وتهدد الحضارة الأوربية بالتلاشى والفناء

لم تعرف أوربا المساواة فى القرون الوسطى فقد انقسمت الشعوب إلى طبقات ممتازة وطبقات محرومة من الامتيازات ، وكان للاشراف قوانينهم الخاصة ومحاكمهم الخاصة وعقوباتهم الخاصة وضرائبهم الخاصة ، وكانت المدارس الحربية يحرم دخولها على طبقات الشعب ، وكانت المناصب الكبرى فى الدولة وقفاً على طبقات الأشراف

وهل تحققت المساواة بمعناها الصحيح فى أوربا اليوم ؟ لا تزال هناك مراحل كثيرة لا يزال على أوربا اجتيازها قبل ترسيخ قواعد المساواة

أو ليس النظام فى فرنسا مزيجاً من النظم الديمقراطية والأوضاع الملكية والأشكال الأرستقراطية ؟

وانجلترا التى يقولون عنها إنها مهد النظام الدستورى ومعقل الديمقراطية أوليس فيها إلى اليوم لوردات ومجلس لأولئك اللوردات ؟

أثار كاتب فرنسى الشكوك حول تحقق مبدأ الحرية السياسية فى فرنسا فاسترعى النظر إلى أن رأى الأمة الفرنسية لا يؤخذ فى أمس الشؤون بحياتها وأشدها تعلقا بمصيرها كحالة الحرب مثلا

واستلفت ذلك الكاتب الأنظار أيضاً إلى أن القضاة فى فرنسا يؤخذون من بيئات خاصة والمحلفين من طبقات عليها مسحة الارستقراطية ، واختلاف العقوبة حين يرتكب الفعل الواحد غنى أو فقير

والحكم مع إيقاف التنفيذ ؟ أفلا يكاد يستأثر به الغنى دون الفقير مع أن الغنى قد يكون اختلس مبالغ طائلة أو بدد أموالا كثيرة ؟

أفلا يسخر المداره المقاويل من كبار المحامين بلاغتهم فى انتزاع الأغنياء دون الفقراء من براثن العدالة ؟

وهل يتاح للفقير ما يتاح للغنى أن يبقى بملابسه فلا يرتدى ملابس السجن ، ويأكل من بيته فلا يأكل من طعام السجون حين يكون سجيناً تحت التحقيق مقابل جعل بسيط تتقاضاه منه إدارة السجن ؟

وأين المساواة إذا كنتم أيها الغربيون تسلحون الأغنياء بأسلحة العلم العالى وتجردون منه الفقراء الذين لا يكادون يجدون السبيل إلى ثمن الخبز فضلا عن أجر التعليم ؟

ليس عجيباً إذن أن يهاجم الديمقراطية خصومها تارة باسم العلم وطوراً باسم الواقع

وليس بدعاً أن يصيح صائح : المجتمع الأوربى يسعى للمساواة ولا يجد السبيل اليها ، شانه فى ذلك شأن الانسانية التى تجد فى طلب السعادة والحقيقة فلا تظفر بهما كما أعيا طلابهما فوست جيته

التسامح الدينى فى الاسلام يقابله الاضطهاد الدينى فى أوربا فى عصور الظلمات

وإذا ذكرنا اضطهاد الفكر والعقيدة ذكرنا محاكم التفتيش

وفى الحق لم تشهد الانسانية قضاء أشد نزوعا إلى الظلم وأكثر جنوحاً إلى القسوة من قضاء محكمة التفتيش

نهضت تلك المحاكم لتصد عن الكنيسة تيار الالحاد المتدفق ، فلئن كانت دينية فى نشأتها فان التعصب قد سخر العدالة فى سبيل تحقيق لبانته وغايته

وفوق ذلك فقد وقفت تناهض كل حركة فكرية وعلمية ، ولعل من أبرز ضحاياها غاليليو الرياضى الفلكى الشهير . أحدث ذلك العالم ثورة فى العلوم الفلكية ولبث ردحا من الزمن يواصل العمل فى بث نظرياته فى دوران الأرض . فاصدرت البابوية ، وفاقا لآراء أحبار محكمة التفتيش قراراً بنقض تلك النظريات وتحريمها ، واعتبارها تحدياً للنصوص المقدسة . ونصح البابا لغاليليو بالكف عن نشر دعاويه . فلم يأبه الرجل لقرار التحريم ، ولم يحفل بذلك النصح ، ومضى فى خدمة العلم والحقيقة . وفى عام ١٦٣٢ نشر كتابه « محادثات عن الاصول العالمية » فأحدث صدوره رجة عظيمة واستقبلته دوائر العلم والفكر فى أوربا استقبالا حماسيا منقطع النظير . وهنا ثارت ثائرة الكنيسة وحرمت بيع الكتاب فى الحال . ودعى غاليليو المشول أمام محكمة التفتيش فى روما ، فاعتذر بشيخوخته وضعفه وكان قد نيف على السبعين . فاستشاط البابا غضباً وعد تخلفه عصيانا . فأجاب الدعوة واعتقل فى قصر محكمة التفتيش فى ابريل من عام ١٦٣٣ . حقق معه وعذب ولم ترحم محكمة التفتيش شيخوخته وضعفه ، وكانوا كلما أمعنوا فى تعذيبه ، ولجوا فى التنكيل به ، أمعن هو فى التشبث بالحق ، والاصرار على الحقيقة . فاذا زادوه نكالا صاح فى وجوههم : ومع ذلك فان الأرض تدور !

وإنه ليهولك أن تعلم أن عدد المحكوم عليهم من محاكم التفتيش المختلفة بلغ فى الفترة ما بين ١٤٨١ -١٤٩٨ ١٢٥٢٩٤٠ منهم ٨٨٠٠ أعدموا باحراقهم و٦٥٠٠ أحرقت رموزهم و٩٠ الفا طبقت عليهم عقوبات مختلفة بالسجن والغرامة والتوبة

وفى الفترة ما بين ١٤٩٩-١٥٠٦ بلغ عدد المحكوم عليهم ٣٤٩٩٢ منهم ١٦٦٤ أحرقوا و٨٣٢ أحرقت رموزهم والباقون وقعت عليهم أحكام مختلفة

ومن ١٥٠٦ إلى ١٥١٨ بلغ عدد الضحايا ١٦٧ر٥٠ من هؤلاء ٢٥٣٦ ماتوا حرقا و ١٦٣٨ احرقت رموزهم والباقون طبقت عليهم عقوبات أخرى

والآن ندع التقدير للمؤرخ الشهير « لورنتى » وهو أكبر حجة وأعظم ثقه فى الموضوع

٣١ر٩١٢	أحرقوا
١٧ر٦٥٩	أحرقت رموزهم
٢٧١ر٤٥٠	طبقت عليهم عقوبات شديدة
٣٤١ر٠٢١	المجموع

والآن فاسمع هذا الوصف الذى تقشعر لهوله الأبدان وصاحب الوصف هو فيكتور هوجو ألقاه فى الاحتفال بتأبين فولتير :

فى ١٣ اكتوبر من عام ١٧٦١ وجد شاب مشنوقا . ثارت الخواطر واضطربت الأفكار . وهاج هائج رجال الدين بينما أخذ رجال القضاء فى التحقيق . ومشى الناس بعضهم إلى بعض يتساءلون : انتحار أم قتل ؟ وكان الاتهام منصبا على رأس الوالد . وقال الذين أثاروا الشكوك حوله إنه من الهجنوت وقد حال بين ابنه وبين اعتناق المذهب الكاثوليكى . وكانت البداهة تمج هذا الاتهام وتحمى الوالد من ارتكاب هذا الجرم الفظيع . وإلا فأى عقل يسوغ أن يسفك الأب دم الابن ويشنق الشيخ الشاب

وما لبث الناس أن شهدوا فى يوم ٩ مارس سنة ١٧٦٢ مشهداً هائلا رهيبا . رأوا رجلا جلل الشيب فوديه يساق إلى أحد الميادين العامة . ذلكم هو جان كالا ، وما راعهم إلا أن يروا الشيخ المتهدم الفانى عارى الجسم مطروحا على عجلة موثق الأكتاف متدلى الرأس . ووقف إلى جانب المشنقة ثلاثة رجال فأما الأول فطبيب ليعنى به . وأما الثانى فقس يحمل الصليب . وأما الثالث فالجلاد وبيده قضيب من حديد .

وعرت الضحية نوبة ذهول واضطراب ، وتمشى الرعب فى أضالعه ، فما كان يرنو إلى القس بل كان يرمق الجلاد بنظراته المضطربة الحائرة ، وما يلبث الجلاد حتى يهوى بالقضيب الحديد فيهشم للمسكين ذراعا . أنين يمزق نياط القلوب يعقبه فقد الرشد . فيتقدم الطبيب فيعيده إلى الصواب بشم بعض الأملاح . فينبرى الجلاد لضربة جديدة . صرخات دامية ثم غيبة عن الصواب . يعيدونه للحياة والجلاد يعاود الضرب . وإذا كان كل عضو لا بد أن يكسر فى موضعين فلا مفر له من تلقى ضربتين . وإذن فقد تلقى المسكين ثمانى ضربات . وفى عقب الضربة الثامنة يقدم القس له الصليب ليقبله . على أن « كالا » يشيح عنه بوجهه . لو كانت الرحمة تجد سبيلا إلى تلك القلوب المتحجرة لقلنا إن كان فى نفوسهم بقية منها فقد أجهز الجلاد على « كالا » بضربة قاضية من رأس القضيب الغليظة ، حطمت صدره تحطيما . وبذلك وضع حد لعذاب كالا وآلامه . إذ فاضت روحه فى الحال

دام التعذيب ساعتين كاملتين ، وما إن مات كالا حتى تبين فى جلاء ووضوح أن الشاب مات منتحراً . على أن جريمة قد ارتكبت ومن هم مرتكبوها ؟ هم جماعة القضاة الذين قضوا على كالا بغير الحق .

وفى عام ١٧٦٥ بعد ليلة عاصفة وجدوا على افريز أحد الجسور صليباً خشبيا عتيقا ملقى على الأرض . ومضت ثلاثة قرون والصليب معلق فى رأس السور . فمن الذى طرح الصليب أرضا ؟ من ذا الذى اجترأ على ارتكاب ذلك الاثم ؟ لا يعلم أحد . أيكون أحد المارة هو الذى عبث به ؟ أم تكون الريح هى التى عصفت به ؟ ويرى الناس مطران « أميان » يرغى ويزبد ، ويبرق ويرعد ، ويتوعد ويتهدد بالنار كل من يعلم الحق ثم يكتمه . وهنا تتلاقى هوجاء التعصب مع هوجاء الجهالة . ولا تلبث العدالة أن تكتشف أو تتوهم أن تكتشف أن ضابطين مرا بالجسر وأنهما كانا ثملين وينشدان نشيداً حربيا ؛ فأما أحدهما فيلوذ بأذيال الفرار ، وأما ثانيهما لابار فيؤخذ بتلابيبه ، فيسأل ، فيعتصم بالانكار ويقسم جهد أيمانه إنه لم يمر بالجسر . فيبدو لهم أن يسألوه عن شركائه . ولكن شركاءه فى ماذا ؟ أفى أنه اجتاز الجسر ؟ أم فى أنه أنشد وصاحبه نشيداً عسكريا ؟ ثم يعذبونه لينتزعوا منه اعترافا فيحطمون إحدى ركبتيه . والمكلف بأخذ الاعتراف منه يهوله صوت قرقعة العظام حتى يغيب عن صوابه من عظم الهول . ثم يسوقون لابار إلى أحد الميادين العامة ، وقد أذكوا فى بعض جوانبها نيرانا مضطرمة . يتلون عليه الحكم . فيكسرون احدى يديه . ثم يستلون لسانه بكماشة من حديد . ثم يرحمونه بأن يفصلوا رأسه عن جسده . ثم يلقون جثته طعاما للنيران ، وكذلك مات لابار فى ربيع العمر إذ لم يكن جاوز التاسعة عشرة وراح ضحية بريئة للتعصب الأعمى .

لم يقض الاسلام بالقاء أحد طعمة للنار لمجرد الزيغ فى عقيدته ولم يضطهد حرية الفكر والاعتقاد ، ولم ينكل بغير معتنقيه ولم يطارد العلماء والفلاسفة بل اتسع صدره للعلم والفلسفة .

وهنا لا نرى مندوحة عن أن نبدد وهما ، فنسارع إلى القول بأن حروب الخوارج لم تكن لها صبغة دينية على الاطلاق ، بل كانت حروبا سياسية بحتة .

نعم ، لم يكن مثار تلك الحروب الخلاف فى العقائد ، وإنما أشعلتها الآراء السياسية فى طريقة الحكم ، وما اقتتل الخوارج مع الخلفاء لينصروا عقيدة . ولكن سعيا وراء قلب نظام الحكم وتغيير شكله

وما اضطرمت نيران الحرب بين الأمويين والهاشميين لشىء غير الخلافة ، وبذلك كانت حروبا سياسية لا دينية .

وكان المسلمون إذا هموا بفتح أمة خيروا أهلها بين الاسلام أو الجزية . أو الحرب . وذلك هو أقصى ما يبلغ اليه التسامح . فاذا أدخل الاسلام بلدا تحت ظلاله خلى بين المحكومين وبين حريتهم الدينية ، وما يكلفهم إلا بجزية يؤدونها صيانة لأنفسهم ومحافظة على أمنهم فى ديارهم وذودا عن عقائدهم ومعابدهم

لهم ما لنا وعليهـــم ما علينا
من آذى ذميـــاً فليس منا
إن المسلمين يسعى بذمتهم أدناهم

ذلك هو شعار الاسلام فى معاملة الذميين

روى البلاذرى فى فتوح البلدان انه لما جمع هرقل المسلمين الجوع ، وبلغ المسلمين اقبالهم اليهم لوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج ، وقالوا قد شغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم فأنتم على أمركم . فقال أهل حمص : لولا يتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم ونهض اليهود وقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد . فأغلقوا الأبواب وحرسوها

من ذلك ترون أن الجزية كانت تؤخذ مقابل الدفاع

يقولون إنا فى عصر عملى يكره الاحلام والحالمين

بل نحن فى عصر هادى فترت فيه حرارة الناس فى التعلق بالمثل العليا وانعدم إيمانهم بالمبادىء السامية أو كاد وأصبح من يتشبث فيهم بتلك المبادىء يسمى خيالياً يعيش فى السحاب

وترى خصوم الديمقراطية يهاجمونها بعنف وشدة ، فهذا يهاجمها باسم العلم وذاك يهاجمها باسم الواقع وغيرهما يتكلم عن أزمة الديمقراطية ، ورابع يخوض فى حديث إفلاسها

يقولون إن النواميس الطبيعية لا تعرف المساواة ، وان الارستقراطية هى دعامة الحضارة والرقى ، وإن من الناس من يجب أن يعمل بيده ومنهم من يجب أن يتوافر على الأعمال العقلية ، وان حكماء اليونان كان لهم بعض العذر حين ذهبوا إلى تبرير الرق بضرورة أن يتفرغ الحكماء لادارة شؤون الدولة

ولا شك أن الديمقراطية تعانى اليوم أزمة شديدة بدليل أن الدكتاتورية قد غلبتها على أمرها فى بعض الأمم

على أن البقاء للاصلح من المبادىء والفوز معقود بلواء الديمقراطية فى النهاية إن شاء الله

فالذين بنوا الحضارة هم من الطبقات الشعبية لا من طبقات الأشراف .

والمشاهد الملموس فى أوربا أن طبقات الأشراف تفنى سراعاً

والمذاهب المتطرفة التى تغزو موجتها أوربا اليوم لا يلبث أن يتجلى زيفها حين يتبين للناس أنها تبنى لهم قصورا من الورق أو قصوراً فى أسبانيا

والاسلام الذى وقف طوال العصور فى وجه العواصف الهوج كالجبل الأشم هو الاسلام الذى يقف اليوم معقلا حصينا يرد عن العالم الاسلامى عادية خصوم الديمقراطية وعدوان دعاة المذاهب الهدامة

فاذا دعونا اليوم للتشبث بمبادئه والتعلق بتعاليمه فانما ندعو إلى الاحتفاظ بمعقل الديمقراطية ، إنما ندعو إلى الذود عن دين الحرية والاخاء والمساواة .

عبد المجيد نافع

أخرجت دار الهلال للطبع والنشر والتأليف

بعطفة الشوشترى خلف بلانتشى بالموسكى

الجزء الأول والثانى من

لسان العرب

وبالنسبة إلى إقبال حضرات المشتركين من العلماء والأدباء فى مصر والأقطار العربية الشقيقة حددنا آخر موعد لقبول الاشتراك فى الجزءين الثالث والرابع يوم ٢٠ من يونيو سنة ١٩٣٧

وسيطبع منهما زيادة بعدد من يتقدم للاشتراك فى بحر هذا التاريخ

وقيمة الاشتراك فيهما ٢٠ قرشا صاغا عدا أجرة البريد عن الجزءين ٣٠ مليما فى مصر وضعفه فى الخارج